السنة الثانية والاربعون — نيسان — حزيران ١٩٤٨

مزاعم المؤرخين العباسيين

في وصف شرّ الامويين

معاوية بن ابي سفيان وزياد بن ابيه وسليمان بن عبد الملك

بقلم حبيب زيات

لم يكتفِ العباسيون حين أدالهم الدهر من بني امية بتتبع رجالهم بالقتل والافناء والتشريد وتقويض ابنيتهم ومصانعهم وانتهاك حرمة قبورهم لاحراق رمتهم وتذرية رمادها في الريح بل تعمدوا ايضاً ازالة كل كلمة لهم وتشويه كل خبر عنهم وتعفية كل اثر من آثارهم في ما عدا المساجد بيوت العبادة كالجوامع الاموية بدمشق وحلب وبيت المقدس وقد اتهم المأمون مع فضله وجلالة قدره وانصافه بنزع اسم «عبد الملك» بن مروان فسيفساء قبة الصخرة وإزالة اسمه «عبدالله» مكانه قال صاحب مرآة

الزمان وقد قرأ الكتابة الاصلية مراراً « واين ايام عبد الملك من ايام المأمون ؟ بينهما نحو من خمسين ومائة سنة »[1] وشهد ان ذلك من فعل بعض الجهال في ايامه . ولا شك ان هذه الضراوة على طمس كل حديث صحيح عن الامويين كانت ايضاً هي العامل الاكبر في تبديد كل الكتابات وابادة كل السجلات القديمة والدفاتر الباقية من تركة الخلفاء الدمشقيين بحيث لم يبقَ الينا من اخبار ذلك العهد مؤلف واحد ينقل لنا تلك الايام ويحكي بغاية الصدق والحقيقة ما تقدم من الانباء والوقائع ويصف اخلاق من درج من الرجال والقبائل وصفاً منزهاً عن كل تعصب وهوى ولما كان الناس على دين الملوك في كل زمان ومكان تقرب الكتبة والمؤرخون والقصاص والمحدثون من رضى العباسيين بوضع الاخبار والمقالات في رواية الحوادث ونعت الرجال على الوجه الذين كانوا يعلمون انه اجدر بالحظوة لدى السلطان وابلغ في الفضل من الدولة البائدة ولذلك لا نكاد نجد اليوم في كل هذه الاسفار التي ورد فيها شرح اخبار الامويين اقل انصاف واعتدال في الكلام عليهم فضلاً عما هنالك احياناً كثيرة من الطعن واللعن والازراء وسوء الثناء او المجازفة والاختلاق في نقل الروايات وايراد النوادر والنكات .

ومن هذه الاخبار والاوصاف التي ذهب فيها الاغراق كل مذهب وتبارى الندماء والسمار في التنادر بها في مجالس دار السلام وحلقات القصاص وصف لهم معاوية بن ابي سفيان وزياد بن ابيه وسليمان بن عبد الملك خاصة ورووا ما شاؤوا في مقدرتهم الخارقة على الازدراد والهضم الى حد يفوق كل امكان ويتجاوز كل ادراك .

وقد اشتهر عندهم معاوية بشدة الشره والاكثار من الطعام على غلظه حتى ضرب به المثل عندهم في سعة البطن كالهاوية كأنهم نظروا الى ان نصف اسمه « معا » فقدروا ان نصف جسمه امعاء قال ابو محمد القزويني الضرير في رجل اكول .

وصاحب لي بطنه كالهاوية كأن في امعائه معاوية[2]

١) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي خزانة بريتش موزيوم 2 f° 232,77 add

٢) البيسة للثعالبي طبعة دمشق ٣:٢١٦

وزعم البلاذري ان الرسول دعا معاوية يوماً وهو يأكل فابطأ فقال لا اشبع الله بطنه فكان يقول لحقتني دعوة رسول الله وكان يأكل في اليوم سبع اكلات واكثر واقل[1] واورد ابن الطقطقي ما كان شائعاً متناقلاً عنه في ايام العباسيين من الخوارق والغرائب فقال :

« كان معاوية رضي الله عنه نهماً شحيحاً عند الطعام على كرمه وسماحته فاما نهمه فقالوا انه كان يأكل في كل يوم خمس اكلات آخرهن اغلظهن ثم يقول : يا غلام ارفع فوالله ما شبعت ولكن مَلِلت وروي انه أُصلح له عجل مشويّ فاكل معه دستاً من الخبز السميذ واربع فرانٍ وجدياً حاراً وآخر بارداً سوى الالوان ووضع بين يديه مائة رطل من الباقلى الرطب فاتى عليه »[2] .

ومن الغريب جداً جواز مثل هذا التخريف على ما تبين فيه من البعد والاستحالة وكان معاوية لا يجهل ما تورثه البطنة من الاسقام والعلل قيل سأل مرة رجلاً عن ابن له أكول فقال له : اعتلّ فقال معاوية : مثله لا يعدم علة[3] فهل يعقل انه كان يعلم هذا العلم ويعرّض نفسه للمرض وقصر الاجل راضياً مختاراً مع شدة حرصه على طول الاستمتاع بالملك والخلافة ؟

وحكى البلاذري ايضاً عن عبيدالله بن زياد بن ابيه انه كان « اكولاً يأكل في اليوم خمس اكلات آخرها جبنة بعسل توضع بين يديه بعد فراغه من الطعام وكان يأكل جدياً او عناقاً يتخيّر له في كل يوم فيأتي عليه رُمرٌ بالطفّ فقال رجل من بني اسد : أتتغدّى اصلح الله الامير ؟ فأكل عنده عشر بطات وزبيلاً من عنب ثم عاد واكل عشر بطات أخر وزبيلاً من عنب وجدياً »[4] .

ولا شك ان نسبة ابن زياد الى بني امية أكسبته عند العباسيين هذه النهمة الطائلة .

وابن شهرة معاوية وابن زياد من شهرة سليمان بن عبد الملك بالشره والافتراس عند مؤرخي العباسيين وحسبنا للدلالة على مغالاتهم وتهويلهم في

١) فتوح البلدان طبعة اوربة ٢ : ٤٧٣ .
٢) الفخري طبعة مصر ٩٨ ونهاية الارب للنويري ١ : ٣٤٣
٣) عيون الاخبار لابن قتيبة ٣ : ٣٣٨
٤) انساب الاشراف ٤ : ٨٦ .

شأنه ان ننقل ما حكاه اثنان فيهم فقط وهما ابو الفرج ابن الجوزي وابو المظفر بن قزغلي[1] اي الجدّ والسبط في كتابيهما المشهورين: المنتظم ومرآة الزمان.

قال ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي باسناده الى عبدالله بن الحارث:

« كان سليمان بن عبد الملك اكولًا. وكان بينه وبين عبدالله وصلة قال: قال لنا سليمان يوماً: « اني قد امرت قيم بستان لي ان يحبس عليّ الفاكهة ولا يجني منها شيئاً حتى تدرك. فاغدوا علي مع الفجر — يقول لاصحابه الذين كان يأنس بهم — لنأكل الفاكهة في برد النهار » فغدونا في ذلك الوقت وصلى الصبح وصلينا ثم دخل فدخلنا معه فاذا الفاكهة متهدّلة على اغصانها واذا كل فاكهة مختارة قد ادركت كلها فقال: كلوا: ثم اقبل عليها. فاكلنا بمقدار الطاقة واقبلنا نقول: « يا أمير المؤمنين هذا العنقود » فيخرطه في فيه « يا امير المؤمنين هذه التفاحة » كلما رأينا شيئاً نضيجاً اومأنا اليه. فيأخذه فيأكله حتى ارتفع الضحى ومتع النهار. ثم اقبل على قيم البستان فقال: « ويحك يا فلان اني قد استجمت فهل عندك شيء تطعمنيه ؟ قال: نعم يا امير المؤمنين عناق حوليّة

---

١) جاء في حاشية شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٥ : ٢٦٦) تعليق لطابع الكتاب على وفاة ابي المظفر سبط ابن الجوزي سنة ٦٥٤ زعم فيه ان صحة اسمه يوسف بن فرغلي (بالفاء والنون) قال: « في الاصل (قزغلي) وفي كثير من كتب التاريخ كالنجوم والاعلام وابن الجزري (قزأوغلي) وكلاهما وما يتصحف منها خطأ ويسمى بمثلهم لتعليله تعليلًا اعجمياً فاسداً والصواب (فرغلي) كما في نسخة قديمة من الوافي بالوفيات وابن خلكان وغيرها من كتب الادب »

وقد عنّ لنا ونحن في أكسفرد ان نبحث في خزانتها في نسخة من الوافي بالوفيات عن صحة هذا الاستدراك فاكان اشد دهشتنا حين وجدنا الصفدي يقول في ترجمة ابي المظفر ما نصّه بالحرف ننقله لما فيه من الاشارة الى مجازفات صاحب مرآة الزمان وهي بعض موضوع مقالتنا الحاضرة قال:

« يوسف بن قزغلي بالقاف والزاي والغين المعجمة واللام ابن عبدالله الامام المؤرخ شمس الدين ابو المظفر . . . سبط ابن الجوزي . . . وكان والده قزغلي من موالي الوزير عون الدين بن هبيرة . . . ويقال في والده زغلي بحذف القاف » ثم اشار الى مرآة الزمان فقال: « وانا ممن حسده على النسبة وهي لائقة بالتاريخ كأن المناظر في التاريخ يعاين من ذكر فيه في مرآة الا ان في المرآة صدأ المجازفة منه رحمه الله تعالى في اماكن معروفة »
(Seld. arch. a. 29 fol 115)

حمراء.» قال: «ائتني بها ولا تأتني معها بخبز» فجاء بها على خوان لا قوائم له وقد ملأت الخوان فاقبل يأخذ العضو فيجيء معه فيخرطه في فيه ويلقي العظم حتى اتى عليها ثم عاد لاكل الفاكهة واكل ملياً ثم قال للقيم: «هل عندك شيء تطعمنيه؟ قد جعت.» قال: «عندي سويق كأنه قطع الاوتار وسمن وسكر» قال: افلا اعلمتني هذا قبل؟ ائتني به وأكثر» فجاء بقعب يقعد فيه الرجل وقد ملأه من السويق قد خلطه بالسكر وصب عليه السمن واتى بجرتي ماء بارد وكوز فاخذ القعب على كفه واقبل القيم يصب عليه الماء فيحركه حتى كفأه على وجهه فارغاً ثم عاد الى الفاكهة فاكل ملياً حتى هجرت عليه الشمس ودخل وامرنا ان ندخل الى مجلسه فدخلنا وجلسنا فما مكث ان خرج علينا فلما جلس قام كبير الطباخين حياله يؤذنه بالغداء فأومأ ان ايتوني بالغداء. فوضع يده فاكل فما فقدنا من اكله شيئاً»[1].

ولم يقنع المؤرخون العباسيون بنقل هذه الحكاية دون اقل إنكار لها بل ارادوا الإكثار من نظائرها ورواية ما يقرب منها وحياكة نسج على منوالها في الطائف في قصة اسندوها الى الشمردل وكيل آل عمرو بن العاص قال فيها:

«قدم سليمان بن عبد الملك الطائف وقد عرفت شراهته[2] فدخل هو وعمر بن عبد العزيز وايوب ابنه بستاناً لعمرو قال: فجال في البستان ساعة ثم قال: ناهيك بما لكم هذا مالاً لولا حرار فيه. فقلت: يا امير المؤمنين انها ليست بحرار ولكنها جُرُب الزبيب. فجاء حتى القى صدره على غصن ثم قال: ويلك يا شمردل أما عندك شيء تطعمني؟ قلت: بلى والله ان عندي لجدياً تغدو عليه بقرة وتروح اخرى. قال: اعجل به. فاتيته به كأنه عُكّة وتشمر فاكل ولم يدع ابنه ولا عمر حتى ابقى فخذاً فقال: يا أبا حفص هَلُمَّ. قال: اني صائم ثم قال: ويلك يا شمردل اما عندك شيء؟ فقلت: بلى والله. دجاجات ست كأنهن ربلان النعام فاتيته بهن فكان يأخذ رجل الدجاجة حتى يُعرّي عظمها ثم يلقيها بفيه حتى اتى عليهن ثم قال: ويلك اما عندك شيء؟

١) جزء من المنتظم في تاريخ الملوك والامم في خزانة اكسفرد:
Bodleian Library, Arab. Poc. 255 fo 4

٢) في الاصل المطبوع «شجاعته» فاصلحناها

فقلت : بلى والله : ان عندي لحريرة كقُراضة الذهب . فقال : اعجل بها . فاتيتهُ بمس يغيب فيه الرأس فجعل يتلقفها بيده ويشرب فلما فرغ نجشأ كأنه صاح في جبّ . ثم قال : يا غلام أفرغتَ من غدائنا ؟ قال : نعم . قال : وما هو ؟ قال : نيّف وثمانون قدراً . قال : فأتني بها قدراً قدراً . فاتاه بها وبقناع عليه رُقاق فاكثر ما أكل من قدر ثلاث لقم واقل ما اكل لقمة ثم مسح يده واستلقى على فراشه واذن للناس ووضعت الخوانات فجعل يأكل مع الناس »[1]

وابلغ من ذلك ما رواه ابو المظفر بن قزغلي وكأنه اراد ان يربي على ما حكاه جدّه فقال بكل يجدّ :

« سليمان بن عبد الملك . . . قال الواقدي كان شرهاً اكولاً يأكل في اليوم الواحد مئة رطل (كأن القنطار ستة في الامويين) ويتناول في ساعة واحدة اربعين رقاقة مع عدة خرفان . . . وقال هشام : كان الطباخ يأتيه بالسفافيد وعليها الدجاج المشويّ فيدخل يده في كمّه وعليه ثياب الوشي فيمسك السفود بيده ويأكل منه اربعين دجاجة . وقال المدائني : حجّ سليمان فقال لقيّمه على طعامه : أطعمني من خرفان المدينة . ودخل الحمام وخرج وقد شوى له اربعة وثمانين[2] خروفاً فاكل من كل خروف جارحة مع شحم كلية حتى اتى على آخرها . ثم دعا الناس الى الطعام فاكل معهم مثل ما كان يأكل واتى الطائف في حجّته فسأله ابن ابي زهير الثقفي ان ينزل عليه فنزل فجاءه برمّان فأكل منها مئة وسبعين رمانة وخروفاً وست دجاجات وعشرين رقاقة ثم اكل مع الناس .

« قال الاصمعي كنت حاضراً عند الرشيد يوماً فجيء بصناديق من ذخائر بني امية ففتح صندوقاً منها فوجد فيه ثياب الوشي وقد سال الدهن على صدورها واكمامها . فسأل الناس عن ذلك فلم يجد عندهم علماً وكان عنده رجل

١) عيون الاخبار لابن قتيبة ٣ : ٢٢٧-٢٢٨ والعقد الفريد لابن عبد ربه طبعة مصر ١٩٤٦ ج ٤ : ٤٣١-٤٣٢

٢) مرآة الزمان . خزانة بريتيش موزيوم add. 23277 fol. 116a

من بني امية فقال : يا امير المؤمنين هذه ثياب سليمان بن عبد الملك كان شرهاً اكولاً »[1]

وفي شهادة الاصمعي نظر لا يخفى على الناقد البصير لان بين الرشيد وسليمان نحو نصف قرن ويبعد جداً ان تكون مثل هذه الثياب المتّسخة بالدهن حُفظت كل هذه المدة بين الذخائر وسلمت من كل نهب وضياع وبلى وآفة بين كل الفتن والحروب والوقائع التي توالت على دمشق في خلال هذه السنين فضلاً عن ان الخلفاء لم يكونوا يضنون بمثل هذه الملابس ويذخرونها دون ان يخلعوها على خدمهم وبعض الوافدين عليهم وقد اعتاد بعض الخاصة ان يجودوا حتى بقميصهم وسراويلهم على سائليهم ومستميحيهم . واذا اتفق ان بعض ثياب سليمان بن عبد الملك حفظت يوماً فمن الغريب ان يكون العباسيون تكلفوا نقلها من دمشق الى بغداد دون ان يعثروا ما في صندوقها ويهبوه لبعض رجالهم او يكون هذا الصندوق بقي مقفلاً كل ايام السفاح والمنصور والمهدي والهادي حتى يكون الرشيد اول مطّلع على ما فيه فلا ريب ان هذه الشهادة موضوعة لاثبات تهمة سليمان بالشره والقذارة .

وكأن المدائني لم يقنع بكل ما حشاه في ساعة واحدة في جوف سليمان من الرقاقات والدجاج والحرفان والرمان وعنده ان المعدة الادمية تتّسع لما فوق ذلك فاضاف الى ما تقدم نادرة بل معجزة اخرى فقال فيما نقله ابو المظفر ايضاً في ترجمة سليمان :

« اتاه دهقان بدابق ومعه زنبيل مملوء بيضاً وآخر تيناً اخضر فقدمه اليه فجلس يقشّر البيض ويأكل كل بيضة بتينة حتى اتى على الزنبيلين ثم اتوه بقصعة مملوءة مخّاً مخلوطاً بالسكر فاكل الجميع وكان قد أكل قبل التين والبيض

---

١ روى المسعودي في مروج الذهب بعض هذه الاقاصيص الثلاثة في زمانه ولكنه ذكر ان الحرفان المشويّة التي قُدّمت له بمدحمأته كانت عشرين فما لبثت العشرون ان اصبحت اربعة وثمانين

والمخ ثلثمائة وستين شاهلوكة[1] وهي عين البقر »[2]

ومن العجيب ان يكون عدّ الخوخ ولم يعد التين والبيض مبالغة في الضبط والدقة في الرواية ولكن المدائني لم يكن ليجهل ان المعى الذي اتسع لمثل هذه التلال من الطعام والفاكهة ولو كان معىً امويًا لا بد له ان يعجز يوماً ويخون صاحبه ولذلك لم يرَ مناصاً مع ما اشتهر من موت سليمان بعد نوبة من السعال والحمى عرضت له وهو يخطب على المنبر[3] من ان يزعم انه بعد ان ابتلع ما ابتلع « مرض واتخم ومات ».

وهكذا وعلى مثل هذا الشكل من المجازفة والتعصب وقلة الانصاف دوّن المؤرخون العباسيون اكثر اخبار الخلفاء الامويين.

---

١) الشاهلوكة هي الاجاص ويعرف ايضاً بالشاهلوج بالجيم المصرية ويقال له في الشام الخوخ . وعين البقر صنف منه اسود وفي مروج الذهب للمسعودي ان الشاهلوج اسم فارسي وتفسيره ملك الاجاص

٢) مجلد من مرآة الزمان . خزانة الكفرد غير مرقوم 9 oc. arab. 371

٣) قال الصفدي في كتابه « تحفة ذوي الالباب : كان قد عرضت له سمنة وهو يخطب بدابق فنزل وهو محموم فما حانت الجمعة الاخرى حتى دفن » (خزانة باريس ٥٨٢٧ ص ٢٣) ونقل مثل ذلك في الوافي بالوفيات رقم ٢٠٦٥ من خزانة باريس ص ٦٦